

## كتب التاريخ مليئة بالنوادر والحكايا المضحكة

## الفكاهة.. زينة مجالس العرب

والعناء فبسبب هجائه الساخر جافاه الصوفي واصل بن عطاء وأهدر دمه.

ولكن لروح بشار الساخرة فضل عليه أيضاً؛ فقد قربته من الخليفة المهدي وتغاضى عن أساءته لأقرب الناس إليه فهذا المعلى بن طريف مولى المهدي سأل مرة الحاضرين من علماء وشعراء عن المقصود بالنحل والشراب في الآية «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون» فقال بشار: النحل والشراب هما اللذان يعرفهما الناس فقال له المعلى: «هيهات يا أبا.. النحل بنو هاشم والشراب هو علمهم» فقال له بشار: «أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بني هاشم» فغضب المعلى وشم بشاراً وظن أنه نال منه مقتلاً عند الخليفة فلما بلغ أمرهما المهدي دعاها وحده بشار بالحديث فضحك المهدي كثيراً حتى أمسك بطنه.

فكاهات الجاحظ

واذا كان علم الجاحظ في قمة العلم العربي لعصره الذهبي الأول فان فن الجاحظ الفكاهي يعتبر قمة الفن العربي الفكاهي لكل عصر. ولا عجب في ذلك؛ فالعلم والفن أخوان متلازمان

ويرى فيهما خير ما في أساس التركيب؛ لأن الضحك هو أول خير يظهر من المولود وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته. يقول الجاحظ: «ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك صار المزح جداً والضحك وقاراً..» لذلك شاعت الفكاهة وعوامل السرور في الجاحظ الذي يرى ذلك أمراً ضرورياً لتنشيط الذهن وادخال السرور على القلب وتزويد الحي بطاقة خلاقة في مجالس العلم والعمل ولهذا يقوم كتابه «البحلاء» الذي جمع أروع نوادر الأشياء وحكايتهم التي يحتجون بها للبلخ والاقتصاد ويورد من الطرائف الكثير فيقول: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة وتعرف حيلة لطيفة واستفادة نادرة عجيبة..» ويقول: «وأنت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد..» ومن أروع ما كتب الجاحظ في هذا المقام «رسالة الترييح والتدوير» التي سخر فيها من الوزير أحمد عبدالوهاب ونعته ووصفه بالعرض والضخامة أو الترييح والتدوير.

أقام الجاحظ سخريته على أساليب فنية محكمة. يخرج في السخرية من موضوع الى موضوع وقلبه على جميع الجوانب ويمزقه دون أن يحس القارئ بغير الاعجاب بالأديب والاندماج في روعة بيانه ومجمال تصويره وقد اعتمد الجاحظ على المتناقضات في السخرية من جمال الوزير ومخيره مثل قوله: «ومن غريب ما أعطيت وبدع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع البطن غيرك ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك. فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت القصير. فيا شعراً جمع الأعراب ويا شحماً جمع الاستدارة والطول».

ويرفع الجاحظ الوزير الى أعلى عليين تهكماً ثم ينزل به الى الدرك الأسفل مبالغة في الترييح والسخرية. فيقول له: «وأنا أبفك الله أعشق انصافك كما تعشق المرأة الحسنة وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم الفقه في الدين» ويطن في ذلك أيما اطباب ثم ينتقل الجاحظ الى العلم والحكمة فيسأل الوزير ابن عبدالوهاب: «فخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفكك وعن سماعتك من أفلاطون وما دار بينك وبين أرسطو طاليس. وأي نوع اعتقدت وأي شيء اخترت؟ فقط أتبت نفسي غيرك. ولولا أنني كلفت برواية الأقاليل ومغرم بمعرفة الاختلاف ما سمعت من أحد سواك وما انقطعت الى أحد غيرك..» انه يراه جامع العلوم والحكم. وهكذا تهكم الجاحظ من الحياة والأحياء وصاغ تهكمه على أساس من العلم الراسخ والفلسفة العميقة والفن الباهر بل انه تهكم من الحياة كلها بصغارها وكبارها وعلمائها وأدعيتها بل سخر مما يسمى بـ«العظمة» وجعلها هباءً منثوراً ومع ذلك فهو بسخريته يبصرنا بالحياة ويدفعنا الى التواضع والعمل ولنرتفع عن الصغائر كلها. وهكذا سبق الجاحظ بأدبه الساخر فولتير وموليير وغيرهما من كتاب أوروبا الساخرين في القرنين السابع والثامن عشر وما تلاهما بعد الجاحظ بألف سنة وأكثر.



• رسمته من الماضي البعيد

## اشتهر العرب بالظرف والطرافة والمداعبة ولمع نجوم كبار في هذا الجانب

وحكي الثعالبي في «بتيمة الدهر» أن أبا محمد بن زريق الكوفي كان كاتباً شاعراً وكان من عجائب الدنيا في الفكاهة والمحاكاة وكان يتردد على مجلس الوزير المهلب ويحكي له النوادر ويقلد الآخرين فيعجب الناظر والسامع له.

وفي القرن الرابع الهجري صار للشعر الهزلي مجتمع وشعراء متخصصون على رأسهم ابن الحجاج البغدادي الذي كان يعتبر صاحب مذهب وأصالة في مدرسة الهزل وعاصره ابن سكرة الذي اشتهر بهجائه الهزلي بجارية تدعى «ضمرة»، قال الثعالبي: «انه نظم في هجائها عشرة آلاف بيت». وقيل فيه وفي ابن الحجاج: «ان زمانا جاد بهما لسخي». وفي مصر عرف محمد الوهراني في القرن السادس الهجري بإمامته في الفكاهة وبخاصة رسائله الهزلية ومقاماته التي تفضي بلاغة وظرفاً.

أبو نواس في السوق

استفاضت كتب الأدب الفكاهي بأخبار عرب البادية من ذلك أن الأعرابي في سبيل الظرف والفكاهة كان لا يحفل بالمال والكسب المادي فقد روى ابن الجوزي أن أبا نواس خرج الى السوق لشراء أضحية فاجتمع بأعرابي ظريف فقال أبو نواس «لأجربنه لأرى صنيعه» فسأله شعراً:

أيا صاحب النشاة التي قد تسوقها

بكم ذاكم الكبش الذي قد تقدا

فرد عليه الأعرابي:

أبيععه أن كنت ممن يريده

ولم تك مزاحاً بعشرين درهما

فقال أبو نواس:

أجسدت رعاك الله رد جوابنا

فأحسن الينا ان أردت التكرما

فقال الأعرابي:

أحط من العشرين خمساً فأنني

أراك ظريفاً فاقبضين مسلماً

فدفع إليه أبو نواس خمسة عشر درهما وأخذ كبشاً يساوي ثلاثين درهما.

ولعل رواة الأدب العربي القديم قد عنوا بالظرف والفكاهة دفاعاً عن مكانة العربي وأن كان بدويًا ودلالة على أنه يرتفع الى مصاف أرقى الناس فكراً وأترفهم عيشاً وان كان من سكان البادية أهل الخشونة في العيش والحياة الفقيرة المتواضعة.

وأعلام الفكاهة في الأدب العربي القديم كثيرون ولعل بشار بن برد وأبا العيلاء «من شعراء العصر العباسي الأول»، يأتیان في المقدمة وأما بشار بن برد فله نوادر ساخرة من أعلام عصره صارت مضرب الأمثال على كل لسان وتعجب منها الأدباء لكنها جرت على صاحبها الولايات

لم يعرف أدب الفكاهة والضحك العالمي على مر العصور كاتباً في قامه أديبنا العربي أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي ملأ الدنيا وشغلها بفكاهته اللاذعة وهو القائل: «من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر» فلم يترك الجاحظ شيئاً في زمانه الا وسخر منه سخريه لاذعة الى حد أنه وجه سهام نقده الساخر الى نفسه فضحك من دمامته وجحوظ عينيه فقد روى أنه شاهد امرأة من جميلات عصره تسير في شوارع بغداد سافرة الوجه فتبعها عبر الشوارع وهي راضية مبتسمة حتى اذا جاءت الى السوق دخلت الى محل صانع وأشارت له أن يتبعها فلما دخل قالت للمصانع: «لقد طلبت منك أن تنقش لي صورة الشيطان وجئتك بهذا الرجل كي تقتبس منه».

ولم يكن الجاحظ الا واحداً من أعلام أدب الفكاهة العربي الذي ازدهر بقوة منذ القرن الثاني الهجري وتوفيق فيه العرب -بجدارة- على كافة شعوب العالم فهم قوم اذا ضحكوا. ضحكت الدنيا.

وثمة طائفة من مشاهير العلماء في فجر الإسلام وضحاها ألفوا في هذا الباب منهم الخطيب البغدادي في كتابه «التطفيل» والحصري القيرواني صاحب «زهر الآداب» في كتابه «جمع الجواهر في الملح والنوادر» والثعالبي صاحب «بتيمة الدهر» في كتابه «نتف

الظرف» والأبشهي «المستطرف» وابن الجوزي في كتابه «أخبار الظراف والمتماجنين» وهذه الكتب الفكاهية لا تخلو من فوائد علمية وأدبية؛ بل هي سجل صادق لتاريخنا السياسي والاجتماعي في زمانها.

ويربط علماء اللغة والأخبار بين الفكاهة والظرف ويوسعون في معانيها حتى يشمل جمال المظهر والمخبر وروعة وطف الخصال.

ومن هذا قول ابن الجوزي: «رد الظرف يكون في صاحبه الوجه ورشاقة القد ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللسان وعذوبة المنطق وفي خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح وكان الظرف مأخوذ من الظرف الوعاء فكأنه وعاء لكل لطيف». وقال الكسائي: «الظريف: الحسن الوجه واللسان».

ولكن العرب ينفرون من الاسراف في المزاح ويرون أن يكون بقدر ما يجدد الهمة ويزكي النشاط لذلك قالوا: «الافراط في المزاح مجون والاقتصاد فيه ظرف والتقصير فيه ندم».

ويعود مؤرخو الفكاهة والظرف بهما الى أقدم العصور وذلك طبيعي؛ فالضحك من خصائص الإنسان دون سائر الحيوان وقد عرف أهل المنطق القدامى الإنسان بأنه «حيوان ضاحك» مثلما عرفوه بأنه «حيوان ناطق» لذلك لا نستغرب اذا نسبت روايات الفكاهة والظرف الى شعراء اللاتين واليونان وأن يروي عن «تراس ومينادر» الكثير من الروايات المضحكات ولا نعجب أن ينسب الى الأنبياء روايات كثيرة فيها ظرف وفكاهة مثل قصة سليمان «عليه السلام» والهدهد وحيل سليمان للوصول الى الحقيقة كحادثة الأوز وسارقتها.

وحفل الشعر العربي منذ القدم بالتهكم والهزل وما الهجاء سوى أحد فنون هذا الشعر ان يقوم على التندر بالمهجو والتهكم به ومن هجاء أحد الشعراء لبني تميم وتعبيرهم بأكلهم للضب الذي يدل على الفقر والمسبغة بما يتناقض مع ما يدعونه من مفخرة وكرم قول بعضهم:

اذا ما تميمي أتاك مفاخرا

فقل: عد عن ذا كيف أكلك للضب؟

وهذا الشاعر الضبي يقنع في السخرية من بني العنبر الذين لا يغيثون قومه حين يستغيثون بهم ويقول ان من يرجوهم مع أنهم لا يسارعون الى نجدة كمن يرجو الغوث من الأجنحة في بطون أمهاتها فقال فيهم:

واني لأرجوكم على بطء سعيكم

كما في بطون الحاملات رجاء

وحين أصبح الخلفاء والأمراء العرب القدامى يعيشون في ترف؛ طلبوا من يضحكهم ويسري عنهم لذلك كثر الأدباء من شعراء وغيرهم على أبوابهم لاضحاكهم بالفكاهات والنوادر ومنهم أشعب وأبو دلامة وأبو الحسين الخليل وأبو العبر حتى كان منهم من يقلد أصوات البهائم والطيور ولهجات الأقطار المختلفة تقليداً دقيقاً بأسلوب مضحك روى الجاحظ عنهم في «الديان والتبيين» أن من أشهرهم أبا ربوية الزنجي الذي كان يقف بباب الكرخ فينطق فلا يبيق حمار الا وينطق معه.